التنشئة البيئية في قصص الأطفال واليافعين

أحمد طوسون*

لعلَّ سؤال أنطوان دو سانت إكزوبيري في روايته الجميلة والشهيرة "الأمير الصغير":

– من أين أنت آتٍ يا غلامي؟ أين "بيتك" هذا؟[١]

يصلح مُفتَتحاً مناسباً لمقاربة تتناول قضايا البيئة في قصص الأطفال واليافعين.

تلك القصص التي تحاول أن تساعد الطفل ليعرف عن بيته ويتوافق معه، كوكب الأرض والكون الذي يعيش فيه، وتُنمِّي حبَّه للاستطلاع واكتشاف ما حوله [٢] وبناء معرفته بالأشكال والأصوات والألوان والعلوم، إلى جانب تنمية خياله وأدوارها الأخرى.

حين بدأت علاقة الإنسان بالبيئة (The environment) والذي يرى رائد أدب الأطفال الراحل عبد التواب يوسف أن ترجمتها الحرفيَّة (ما حولنا)، لم يكن عرف الفنون والآداب بعد.

ولم يخطر على ذهنه في طفولته على كوكب الأرض مصطلح مثل "قضايا البيئة" أو يشغل تفكيره، لكن بحسِّه وإدراكه البشري استشعر أن البيئة من حوله المَعِين الذي سيجد فيه ما يسدُّ احتياجاته الضروريَّة لمواصلة الحياة على كوكب الأرض.

من هنا بدأت رحلة الاكتشاف الأولى، منذ غطى آدم وحواء سَوْأَتَهما بورق الشجر في أول محاولة لسد احتياجهما من البيئة حولهما، مروراً بالتعلُّم من البيئة الحية والاستفادة من دروس الطبيعة، كما حدث في واقعة غراب قابيل وهابيل.

من البداية عرف الإنسان أن علاقته مع الطبيعة علاقة تفاعل متبادلة ستمتد عبر الزمن، ما بين احتياجه للهواء والماء والطعام والمَلبَس والمأوى والسكن، وحاجته إلى المعرفة والتعلُّم واكتشاف الأسرار التي وضعها الخالق في كوكب الأرض.

* كاتب – مصر.

فالاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها يتعلق بالاهتمام بالإنسان وحياته؛ لأن التغير الذي يحدث في البيئة ويضرُّ بها، ينعكس سلباً على حياة الإنسان وصحته وغذائه، ويشكل خطراً على حياته ومعيشته.

من هنا بات الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها من أولويات المجتمعات المتحضرة؛ لأنه بالأساس اهتمام بالإنسان ومستقبل حياته فوق كوكب الأرض.

وتنشئة الطفل على حب الطبيعة والاهتمام بها، وتربيته على قيَم الحفاظ على البيئة وحمايتها ضد الأخطار التي تهدد البيئة بسبب التصرفات السيئة للبشر في تعاملهم معها هو السبيل إلى مستقبلٍ أفضل، فطفل (ة) اليوم هو رجل وامرأة الغد، والرهان على أهمية أدب الأطفال وبخاصة قصة الطفل في القيام بهذا الدور بالتوعية البيئية ليس وليد اللحظة، فالقصص التي تتناول البيئة وتدعو للحفاظ عليها ضد أخطار التلوث ومواجهة التحديات البيئية الهائلة، تشكل مَلْمَحاً واضحاً في الكتابات الموجهة للأطفال والناشئة عربيّاً وعالميّاً؛ مما دفع عالِماً كعالِم البيئة ليام هينيجان يرى أن الكتب يمكنها مساعدة الأطفال على التعامل مع تلك الاحتمالات التشاؤميَّة، ولا يكتفي بذلك بل يقدم لنا كتاباً يناقش ويُحلِّل فيه الأفكار والموضوعات البيئيَّة التي تتناولها كلاسيكيَّات كتب الأطفال تحت عنوان: "وحوش وقت النوم Beasts at Bed time"[٣].

مفهوم البيئة:

يُطلق لفظ البيئة (The environment) على مجموعة الظروف والعوامل الخارجيَّة التي تعيش فيها الكائنات الحيَّة، وتؤثر في العمليات الحيويَّة التي تقوم بها، أي كل ما هو خارج عن كيان الإنسان وكل ما يحيط به من موجودات، كالهواء الذي يتنفسه، والماء الذي يشربه، والأرض التي يعيش عليها، وما يحيط به من كائنات حية، هي عناصر البيئة التي يعيش فيها، ويمارس حياته ونشاطاته المختلفة.

وتنقسم البيئة إلى قسمين أو نوعين، هما:

- البيئة الطبيعيَّة
- البيئة الاجتماعيَّة.

وتتضمن الأخيرة النُّظُم والعلاقات الاجتماعيَّة والحالة الاقتصاديَّة والصحيَّة، وكلها متصلة بعضها ببعض[٤].

وما يهم هنا الحديث عنه هو البيئة الطبيعيَّة، أو ما يُطلق عليه الطبيعة، (إجمالي الأشياء التي تحيط بنا وتؤثر على وجود الكائنات الحيَّة على سطح الأرض، متضمنةً الماء والهواء والتربة والمعادن والمُناخ والكائنات أنفسهم)[٥].

التربية البيئيـَّة:

يرى كثير من المختصين أن التربية هي عملية تُعنى بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره، وذلك لأن السلوك الإنساني ليس موروثاً بل مكتسب، يكتسبه الفرد من خبرات الجماعة التي يعيش معها، وينصبُّ الاهتمام هنا على تزويد الفرد بأنماط سلوكيَّة تُمكِّنه من التكيُّف مع المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه[٦].

أما التربية البيئيَّة، فهي العمليَّة المنظمة التي تهدف إلى تنمية وعي الأفراد بالبيئة والمشكلات المتعلقة بها، وتزويدهم بالمعلومات والمهارات والقيَم والاتجاهات وتحمُّل المسئولية الفردية والجماعية تجاه حل المشكلات البيئية القائمة، والعمل على عدم ظهور مشكلات جديدة[٧].

ولعل أفلاطون كان من أوائل من نادى بتحمُّل المسئولية عن الضرر الذي يُحدثه الإنسان في البيئة من حوله وإعادة تأهيل البيئة وإصلاحها، بل وتعويض المُتضرِّر من سلوك الإنسان السيئ مع بيئته، إذ ذكر في كتاب (القوانين) "إن الماء يمكن تلويثه بسهولة، ومن يقوم بتلويث الماء بقصد، عليه أن ينظف البئر أو الجدول، بالإضافة إلى تعويض المُتضرِّرين من هذا التلوُّث".

تطور سلوك الإنسان تجاه الطبيعة:

مر سلوك الإنسان مع الطبيعة بمراحل عدَّة عبر تاريخ عمرانه الأرض وتطور الثقافة الإنسانية، يُجملها إيان ج. سيمونز في كتابه "الإنسان والبيئة عبر العصور"[٨] في خمس مراحل:

١- مرحلة القَنْص وجمع الغذاء وبدايات الزراعة

٢- الحضارات النهرية

٣- الإمبراطوريَّات الزراعيَّة

٤- العصر الصناعي الأطلنطي

٥- العصر الصناعي الهادئ – العالمي.

في المرحلة الأولى مرحلة الجمع والالتقاط، كان تعامل الإنسان مع البيئة حوله تعاملاً بسيطاً

في بداية حياة الإنسان على الأرض للحصول على الغذاء والمأوى والمَلبَس، وفي هذه المرحلة كان تأثير البيئة على الإنسان أكبر من تأثير الإنسان على البيئة، حتى انتقل إلى مرحلة الصيد واكتشاف النار وصناعة أدوات الصيد واستخدامها فأصبح تأثيره في البيئة ملموساً.

ثم انتقل إلى المرحلتين: الثانية والثالثة التي يمكن تسميتهما بمرحلة الزراعة والتي عمل فيها الإنسان على التوقف عن التجوُّل والترحال خلف البحث عن غذائه، وعمل على تأمينه بالعيش إلى جوار مصادر المياه لزراعة الأرض وتربية الحيوانات التي يحتاجها وتدجينها، وأقام مساكنه إلى جوار الأنهار وصنع أدوات الزراعة والريّ والحصاد.

في هذه المرحلة ظل تأثير الإنسان على البيئة بسيطاً ولم تظهر الآثار السلبية التي واكبت انتقال الإنسان إلى المرحلتين: الرابعة والخامسة، ويُطلق عليهما مرحلة الصناعة والتقدم العلمي والتكنولوچـي.

شهدت هذه المرحلة مع ثورة العلم والتكنولوچيا التأثير الأكبر للإنسان على البيئة واستثماره لموارد البيئة بشكل أمثل، إلا أن المُخلَّفات المواكبة للتطور في المَيْكَنَة والصناعة وعلوم الفضاء أثرت على البيئة بشكل سلبي، وأخلَّت بالنظام البيئي وتسبَّبت في العديد من المشكلات البيئيَّة التي أصبحت تشكل خطراً على الإنسان؛ مما دعاه لسَنِّ القوانين التي تحدُّ من الإضرار بالبيئة والحَدّ من هذه المشكلات وتجنُّب حدوث مشكلات جديدة والعمل على الحفاظ على البيئة وتحسينها، والاهتمام بالتوعية البيئيَّة وقضايا البيئة من أجل مستقبل أفضل.

حماية البيئة:

اهتمت الأمم المتحدة بالحفاظ على البيئة كأحد حقوق الإنسان عامةً وحقوق الطفل بصفة خاصة؛ نظراً لتأثره بصورة أكبر من الأضرار الناتجة عن المشاكل البيئيَّة، فنصت اتفاقية حقوق الطفل الصادرة عام ١٩٨٩ في البند الأخير من المادة ٢٩ من الاتفاقية الخاصة بحق الطفل في التعليم، على أن يكون تعليم الطفل موجهاً نحو:

- تنمية احترام البيئة الطبيعيَّة.

وفي عام ٢٠٠٢، عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في الفترة من ٨ – ١٠ مايو دورة استثنائية بالطفولة، صدر عنها إعلان عالَم جدير بالأطفال مصحوباً بخطة عمل لتنفيذه، من أهم بنوده: (حماية الأرض من أجل الأطفال).

وقالت في بيانها إن حماية البيئة تعني حماية الأحياء البرية والمائية وحماية النُّظُم الطبيعية، واستغلالها بشكل يضمن استمرارها في العمل وفق نظام طبيعي متزن دون تبذير للموارد المتاحة، وأما تلوث البيئة فيُعدُّ من أهم الكوارث التي تهدد الإنسان والأطفال بوجه خاص في الوقت الحاضر؛ بسبب ما يتعرض له العالم من جرَّاء الثورة الصناعية الهائلة التي أدت إلى ازدياد المُخلَّفات الصناعية وبخاصة اليورانيوم المُنضَّب، وما لحق بطبقة الأوزون من أضرار قد تسبب كوارث بيئيَّة كبيرة ويتعرض الأطفال لهذا التلوث أكثر من غيرهم.

استناداً إلى ما تقدم، فإن بقاء الجنس البشري يتوقف على قدرته على استمداد رزقه من عالم طبيعي محدود، وعلى الامتناع عن تدمير أنظمة الطبيعة التي تقوم بتجديد هذا العالم، واستخدام أقل المصادر بأقل الفضلات، وهذا يتطلب تطوير تكنولوچيا ذات إنتاجيَّة أفضل وتأثير أقل على البيئة[٩].

فحماية البيئة تعني الحفاظ على النظام الطبيعي والدقيق للطبيعة وعدم الإخلال به، ومنع الأضرار الناتجة عن تصرُّفات الإنسان الخاطئة تجاه بيئته، وعلاج ما يتولَّد عن هذه التصرفات من مشاكل بيئيَّة تضر بالطبيعة والكائنات الحية ومن بينها الإنسان نفسه.

أهمية القصص في بثِّ القيم والتأثير على السلوك القيمي للطفل:

تحظى القصة بمكانة متميزة في أدب الأطفال، حيث أنها تُعدُّ من الفنون الأدبية المؤثرة على السلوك القِيَمي للأطفال في المواقف اليومية وأنها أكثر حيويةً وتشخيصاً لمواقف الحياة، فهي تُنمِّي لديهم القدرة على الابتكار وتحلق بهم في أجواء الخيال بعيداً عن محدودية الواقع، كما أنها تُعدُّ أكثر جاذبيةً للأطفال وقدرةً على إمتاعهم واستثارة مشاعرهم[١٠].

فمع تفتُّح مدارك الطفل وفهم ما يحيط به تبدأ القصص والحكايات في مساعدة الطفل على اكتشاف ما حوله وإكسابه الخبرات الملائمة لعمره ونُموِّه العقلي والانفعالي، وتنمية معارفه وخياله ومساعدته على تعلُّم فن الحياة.

فحب الأطفال للقصص والحكايات أمر شائع ومعروف، حيث أن الأسلوب القَصَصيّ بما فيه من تشويق وخيال وربط للأحداث، يمكن أن يكون الوعاء الذي نصبُّ فيه كل ما نريد تقديمه للأطفال؛ كذلك فإن القصص تُعدُّ من أهم وسائل تنمية وعي القراءة وتنمية مختلف القدرات اللازمة لجعل القراءة عملية منتجة ومفيدة[١١].

قضايا البيئة في قصص الأطفال:

- **تنمية المفاهيم البيئيَّة:**

تعمل القصص على غرس المفاهيم البيئيَّة في الطفل منذ الصِّغَر؛ ليعيش مستمتعاً بجمال الطبيعة متوافقاً معها يعمل على تحسين بيئته وعدم الإضرار بها، بصورة تجعل الطبيعة تجدد نفسها وتلبي الاحتياجات اللامتناهية للإنسان الذي ينمو ويزداد عدده على كوكب الأرض بينما موارد الطبيعة محدودة مهما بلغت، وتحتاج إلى عدم الإضرار بها لتجدد نفسها وفق قوانين الطبيعة ذاتها.

تَعامُل النصوص الموجَّهة للطفل مع البيئة يبدأ بتعريف الطفل بالبيئة والموجودات من حوله حسب مراحل نموه وإدراكه وقدرته على تَلقِّي المعارف، ولا ينتهي عند تعريفه بالقضايا البيئيَّة الناتجة عن تعامل الإنسان السيئ مع البيئة وتحذيره من أخطار التلوث إلى الأفكار الحديثة كالاستدامة البيئية، أو القصص التي تعمل على تنمية الذكاء البيئيّ وفهم الظواهر الطبيعية، فكلما فهم الطفل الطبيعة أحسن التعامل معها في الظروف الطبيعية أو في حالات المشكلات البيئيَّة الخارجة عن إرادة الإنسان كالكوارث الطبيعة.

- **أنا جزءٌ من الطبيعة:**

لن يستوعب الطفل أهمية وضرورة الحفاظ على البيئة وتحسينها إلا إذا استوعب أنه جزء من هذه الطبيعة وأحد الكائنات الحيَّة التي تعيش فوق كوكب الأرض ولا يعيش بمفرده، وأن الإخلال بقانون الطبيعة والإضرار بها سينعكس عليه بالضرورة ويُعرِّضه للأخطار.

في رواية "قصة القلب السمين"[١٢] لسوزانا تامارو هرب مايكل من مدرسة النحافة، تاه في الغابة وقضى فيها أياماً بمفرده قبل أن ينقذه السنجاب الذي يحاول أن يتعرف إليه وينبهه إلى هذه المعلومة المهمة، إنهما ينتميان إلى الفصيلة الحيوانية داخل منظومة الكائنات الحيَّة على الأرض، فنحن شركاء ومن فصيلة واحدة والطبيعي أن نتصادق.

نقرأ من الرواية: «لم يُجِب السنجاب هذه المرة، نظر إلى مايكل من رأسه إلى قدميه ثم سأله من جديد:

– ولكن أنت، أي نوع من الحيوانات أنت؟

أجاب مايكل مرة أخرى بدهشةٍ لأنه يتحدث مع حيوان:

– أنا طفل!

– طفل؟ أجاب السنجاب – طفل نونو؟ إذاً أنت حيوان إنسان!

– أنا إنسان صغير، أي صغير في السن ولكني إنسان.

أكد السنجاب: تمام حيوان.»[١٣].

وراء إصرار السنجاب رسالة مهمة غرستها سوزانا تامارو مؤلفة العمل في سطور قليلة في نص قضيته الرئيس البدانة.. إننا جزء من هذا العالم وكائناته المختلفة وننتمي إلى الفصيلة الحيوانية التي ينتمي إليها.. لا بد أن نعي هذه الفكرة جيداً لنتوافق مع البيئة حولنا ومع اختلاف كائناتها. فإذا كان الطفل وحيداً وتعيساً يمكنه أن يتخذ من الحيوانات أصدقاء، هكذا كانت دعوة السنجاب لمايكل في قصة القلب السمين، لا تبقوا وحيدين وتعساء وبإمكانكم اكتساب حيوانات أليفة حولكم.. لتصل إلى كل أطفال العالم.

إننا جزء من الطبيعة ويجب أن نحب العالم الذي ننتمي إليه ونرعاه ونحافظ عليه، إن الطبيعة هبة من الخالق ويجب علينا أن نحبها ونحافظ عليها؛ لتُحبَّنا وتهدينا خيراتها.

المعنى السابق جسَّدته قصة (ليلى الخضراء)[١٤] لنادر أبو تامر، فليلى الصغيرة أحبت الطبيعة، ومن يحب الطبيعة يحب الحياة، تُطْعم الطيور وتسقي الأزهار وتعتني بها، ووقفت ضد الوزير الشرِّير الذي أراد أن يقطع الأشجار الخضراء ويحرقها فيلوث الهواء النقي، وأراد أن يجفف البحار ويلوث الماء هبة السماء للكائنات الحية لتعيش وتحيا، فتصدت له ومنعته فأحبتها الطبيعة وأعطتها فستانها الأخضر، وعندما قابلها الأمير عرف أنها تدافع عن الطبيعة لأنها تحب الحياة وتريدها لكل الناس؛ فتزوجا وصارت ليلى الخضراء وزيرة وأميرة تحافظ على الطبيعة وتدافع عنها.

- **التعرف إلى ما حولنا:**

كثيرةٌ هي النصوص التي تساعد الطفل – وبخاصةٍ لمرحلة ما قبل المدرسة – مع تفتُّح مداركه على فهم ما يحيط به واكتشاف ما حوله من أشياء ومخلوقات، مثل النصوص المُبسَّطة التي تُعرِّف الكائنات الحية أو الكون أو الظواهر البيئية المختلفة والمشاكل البيئية، كموسوعة علم البيئة للأطفال والناشئة للراحل عبد التواب يوسف[١٥]، أو سلسلة بيئة نظيفة لصحة أفضل[١٦]، أو كتاب مثل (أَلِف.. باء الحيوانات) [١٧] لنبيهة محيدلي حيث يقدم رحلة في عالم الحيوان من الصغير الصغير حتى الكبير الضخم، تختار تفاحة من كل حرف من حروف الهجاء حيواناً تتعرَّف إليه

وتعرفنا شكله، بيته، طعامه، عائلته، علاقتنا به، أهم مميزاته.

فإن النصوص القَصَصيَّة تلعب الدور نفسه في تعريف الطفل المكان الذي يعيش فيه والكائنات الموجودة به، واكتشاف مفردات الطبيعة من حوله، وتتعدَّد الأشكال والطرق التي تُقدِّم من خلالها القصصُ المعلومات البيئية، من خلال تقسيمها إلى مجموعات تنتمي إلى فصيلة واحدة أو بجمعها في مكان واحد، أو الاكتفاء بالتعريف بكائن واحد في القصة الواحدة، وأحياناً لا تخضع لقاعدة محددة وتدمج ما بين الأشكال السابقة في نَصٍّ واحد.

قدمت دار الحدائق بلبنان سلسلة قصصيَّة تحت عنوان: من أنت؟ للتعريف بالكائنات الحية في إطار قصصي، نختار منها قصة (هل أنت سمكة؟)[١٨] لأماني العشماوي، ومن خلالها يتوجه حسن إلى الكائنات البحرية بالسؤال هل أنت سمكة؟ فيعرف القارئ الصغير بعض الكائنات البحرية التي يقابلها حسن في القصة، ويعرف الفرق بين الأسماك وباقي الكائنات البَحْريَّة كالفُقَمَة والإخطبوط مثلاً، وفي نهاية النص تسأل الكائنات البحرية حسن: «أيُّها الصبيُّ.. من أنت؟. قال حسن: أنا إنسان ولي عقل أفكر به وأتعلم به. – هل تعيش في الماء مثلنا؟، سألت الحيوانات، قال حسن: كلَّا.. فنحن نعيش في البَرِّ طول الوقت، لكننا نتعلم السباحة، فنسبح في البحر مثلكم»[١٩].

فعرَّفت الكاتبة الفرق بين الإنسان والكائنات البحرية في أن الإنسان يفكر ويتعلم ويعيش في البر، لكن قدرته على التعلُّم جعلته يسبح في البحر كالكائنات البحرية.

وتقدم نبيهة محيدلي في قصة (غسَّان يعرف ما هو أحلى مكان)[٢٠]، وصفاً للطبيعة من خلال رحلته من بيت جدته باحثاً عن أحلى مكان بالقرية، فوصف البستان الكبير وما به من فراشات وأرانب، كما وصف بيوت القرية وشوارعها، والجبال التي تحيط بها ويتردد بينها صدى صوته، كما وصف نهر القرية الصغير واستمع إلى خرير مائه، وراقب أسماكه التي تحرك ذيولها يميناً ويساراً والضفادع التي تتقافز حول شاطئ النهر، لكنه في النهاية اختار بيت جدته كأحلى مكان بالقرية.. إنه نَصٌّ لا يكتفي بوصف بيئة قرية جَدَّة غسَّان، بل يحفز الطفل على تأمُّل البيئة التي يعيش فيها ويتعرف إلى المكان وما به من كائنات، وأجمل مكان بالنسبة إليه كما فعل غسان.

وهناك قصص تختار أحد الكائنات الحيَّة لتحكي قصة حياته من البداية حتى النهاية، سواء أكان حيواناً أم نباتاً أم جماداً.. ففي قصة (السُّنْبلة الخضراء)[٢١] لفريال خلف تتدحرج كرة أنس وكاد أنس أن يدهس سنابل القمح ليحضر الكرة، فتنادي عليه السنبلة الخضراء ليتوقف قبل أن

يدهسها بقدميه، وتحكي له قصتها منذ كانت بذرة غرسها والده في الأرض حتى يوم الحصاد فيعرف أنس كل شيء عن سنبلة القمح، كما يعرف أهمية السنبلة في حياته وحياة أسرته وحياتنا جميعاً.

- **ثراء الطبيعة:**

الطبيعة حولنا ثريَّة وغنيَّة بكائناتها المتعددة والمختلفة، وهناك نصوص تحرص على إظهار هذا الثراء والتنوُّع، بخلاف نصوص تحاول إظهار جمال البيئة الخاصة ولو بدت ناقصة من أحد الأشياء أو الكائنات التي توجد في بيئة أخرى، فأي نقصان في البيئة حولك يعوضه جمال آخر.

في قصة (الفراشة وزهرة النرجس)[٢٢] لأحمد طوسون كانت الفراشة سعيدة برحيق الأزهار في حديقتها، لكن طائر الحَسُّون يقنعها أن حياتها ناقصة طالما خلت حديقتها من زهرة نرجس، (لكن طائر الحسون الصغير أغلق فمه وأطبق على منقاريه قبل أن يقول بجدية تامة: أوه مسكينة يا صديقتي.. كيف يمكنك أن تعيشي في الحياة وتستمتعي بها دون أن تكون بحديقتك زهرة نرجس واحدة؟!.)[٢٣].. فتتحول سعادة الفراشة إلى حزن وتعاسة لعدم وجود زهرة نرجس بحديقتها، ولم يعُد باستطاعتها ارتشاف الرحيق حتى ذبلت وانطفأت ألوانها الزاهية، بينما باقي الفراشات كُنَّ يعرفن ثراء الطبيعة وجمالها وبإمكانهن أن يعوِّضن ما بدا نقصاً، وأن السعادة أن نستمتع بما في أيدينا ولا نتباكى على ما حُرمنا منه، «بينما الفراشات حولها كُنَّ يرقبنها ويتعجبنَ، كيف للفراشة المسكينة أن تأسَى على غياب زهرة وحيدة عن حديقتها وتنسى كل الورود الجميلة التي تزهر بها الحديقة. حتى لو كانت زهرة نرجس؟!»[٢٤].

أهمية الطبيعة لصحة الطفل:

وفي قصة (الدنيا ليست قِطَّة)[٢٥] لعمر صوفي تحرص الأم على عزل مازن عن الحياة خوفاً عليه، فلا يعرف مازن من الكائنات الحية إلا قطته الجميلة، وحرمته أن يتمتع بالطبيعة الثريَّة حولنا، فكانت النتيجة أن مرض مازن رغم حرص الأم على تغذيته بالغذاء الصحي، (كان مازن يكبُر إلا إنه يبدو دائماً أصفر الوجه، شاحب البشرة، فاقد الشهيَّة، رغم أن أمه توفر له أفضل أنواع الغذاء)[٢٦] فالطبيعة مهمة جدًّا لنُموِّ الطفل بشكلٍ صحيحٍ والتمتع بصحة جيدة، وعندما تذهب الأم بمازن إلى الطبيب يبين لها أن العلاج سيجده مازن في الطبيعة، «– أستاذة منى،

ليس بالطعام الجيد وحده ينمو الأطفال أصحَّاء، مازن لا بد أن يخرج إلى الطبيعة حيث الشمس والهواء الطَّلْق النقي، كل ذلك مهم لبناء جسمه وتجديد حيويته»[٢٧].

الماء سر الحياة:

الماء هو سر الحياة فوق كوكب الأرض، يقول الله تعالى في سورة "الأنبياء": «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» (الآية: ٣٠). فالماء أساس الحياة للإنسان والحيوان والنبات والكائنات الحية كافةً، والحفاظ عليه وحمايته من التلوث وعدم إهداره حفاظٌ على الحياة بصورها المختلفة، وكثيرةٌ هي النصوص الموجهة للطفل التي توضح أهمية الماء في حياتنا.

فالأرض أيضاً تموت إذا لم تُروَ بالماء كما حدث لمزرعة مروان في رواية (حدائق في السحاب)[٢٨] لمنال الغداني الشحي، فتضطر أسرة مروان لترك الريف والذهاب إلى المدينة إلى أن يصل الأب لحلٍّ لنقص المياه يعيد الحياة إلى الأرض التي ماتت.

وتقول قطرة الماء عن نفسها في قصة (رحلة لؤلؤة)[٢٨] لأحمد طوسون: «لكنني أغلى من اللؤلؤ.. فالكائنات جميعاً لا تستطيع الاستغناء عني!»[٣٠].

فقطرة الماء أغلى ما في الحياة لأنها تروي عطش الكائنات الحية، وتسقي الزرع فتنبت المزروعات والأشجار وتنتشر النباتات والخضرة في الأرض؛ ممَّا يتيح لها إنتاج الأكسچين وتخليص الأجواء من ثاني أكسيد الكربون. في قصة رحلة لؤلؤة تحكي قطرةُ الماءِ قصة حياتها لريم منذ تبخَّرت في البحر الكبير وصارت سحابة وسقطت أعلى الجبل واجتمعت مع قطرات المطر وانزلقت إلى السهل وحفرت طريقاً إلى مجرى النهر؛ لتواصل رحلتها إلى مَصبِّ النهر عند البحر الكبير، «وفي الطريق نروي الأرض القريبة من النهر فتتلوَّن بالخضرة، وتنبت المزروعات، ونسقي النَّبَاتَاتِ فتَنْمُو وَتُزْهِرُ بألوانها المبهجة، ونروي العطشان من طير وحيوان وبشر.»[٣١]، ولا تكتفي قطرة المياه بذلك بل تساعد في توليد الكهرباء بقوة اندفاعها عند الشلالات؛ فتدور حركة التروس في المصانع «أنا لؤلؤة حيثما وُجِدت، حلَّ الخير والحب والنماء»[٣٢]، وطالما قطرة الماء تمثل هذه الأهمية في حياتنا يجب الحفاظ عليها من التلوث والإهدار؛ لتؤدي رسالتها السامية نحو العالم، «أنا قطرة ماء قد يراها البعض صغيرة، وضعيفة، وغير قادرة على منع الأطفال من العبث بها وبأخواتها من القطرات وإهدارهن في لعبة فُقَّاعات الصابون، أو إصلاح عطل في صنبور مياه يؤدي إلى انزلاقنا في أنابيب المجاري والقاذورات دون أن نستطيع أن ننقذ أنفسنا،

أو أن نؤدي رسالتنا السامية نحو العالم!»[٣٣].

لذا تشعر ريم بالخجل لأنها لم تُصلِح صنبور المياه وتركت القطرات تتساقط، ويحرص خالد في قصة (مدرسة نظيفة.. شارع نظيف) [٣٤] لإيمان سند على إغلاق كل صنابير المياه التي تركها التلاميذ مفتوحة في المدرسة، «ويعلق لوحة على الباب الخارجي مكتوب عليها: "الماء سِرُّ الحياة.. حافظوا عليه"، وعندما جاء تلميذ يحمل رشاش الزرع.. ليسقي الزرع.. رأى اللوحة المعلقة.. «بعد الرش، أغلق الصنبور جيداً»[٣٥]. إننا تعلمنا من القصص أهمية الماء في حياتنا وضرورة المحافظة عليه وترشيد استهلاكه.

وفى رواية (الرحلة العجيبة لعروس النيل)[٣٦] ليعقوب الشاروني، تصطحب عروس النيل الأطفال إلى رحلة تحت الماء؛ ليكتشفوا بأنفسهم ما تسببه تصرفات الإنسان من تلوُّث وتدمير للبيئة، «كان الناس فيما مضى يحافظون على النيل، ويحرصون على صفاء مائه، أما الآن، فهم يمثلون خطراً شديداً عليه»[٣٧]. إن تلويث مياه النهر أثَّر بالسلب على كائناته البحرية كما فقد النبات نضارته بسبب تلوُّث البيئة، ويُعدِّد الكاتب أشكال التلوث التي تصيب النهر من مخلفات المصانع الكيميائية التي تصب في النهر، والنُّفَايات والعلب الفارغة التي يلقيها الناس في النهر، وغسيل الأشياء في النهر وغيرها؛ مما أدى إلى موت الأسماك ونفوقها بخلاف ذبول النباتات وتهديد حياة كل من يرتوي بمياه النهر؛ لذا تدعو عروس البحر لعدم تلويث النهر والحفاظ على مائِه.

قطرة الماء تحذرنا في قصة رحلة لؤلؤة: «وبدت جادة حين قالت: لكنني لا أتسامح أبداً مع من يُهدرني أو يهدر أخواتي القطرات بلا فائدة!»[٣٨].. ونحن جميعاً لن نتسامح مع من يلوث الماء الذي هو نبع الحياة على الأرض.

نحو بيئة مستدامة:

الاستدامة بالإنجليزية (Sustainability): هي مصطلح بيئي يصف كيف تبقى النظم الحيوية متنوعة ومنتجة مع مرور الوقت. والاستدامة بالنسبة إلى البشر هي القدرة على حفظ نوعية الحياة التي نعيشها على المدى الطويل، وهذا بدوره يعتمد على حفظ العالم الطبيعي والاستخدام المسئول للموارد الطبيعية[٣٩].

ولا تكتفي قصص الأطفال الحديثة بإشباع حب الاستطلاع وتقديم المعلومات أو التوعية

بالتلوُّث وأخطار الإضرار بالبيئة، بل تُجاري الإنسانية في العمل على ترسيخ قيم إيجابية من شأنها تحسين البيئة واستدامتها، بما يجعلها تجدد من نفسها بأفضل صورة ممكنة لسد احتياجات البشر وإشباعها، ونتناول في النقاط التالية بعض نماذج من قصص الأطفال واليافعة، التي تهدف نحو بيئة مستدامة وتبث قيم الاستدامة البيئية:

حق الطفل في بيئة نظيفة:

ترتبط النظافة ارتباطاً وثيقاً بصحة الطفل والصحة عموماً، وكما من المهم أن يتعلم الطفل الاهتمام بنظافته الشخصية ليقيَ نفسه من الأمراض، من حق الطفل أن ينشأ في بيئة نظيفة جميلة وأن يستمتع بالهواء النقي والماء النظيف الصالح للشرب والأرض الخصبة الصالحة للزراعة، فكما يمرض الإنسان تمرض البيئة إذا أهملنا نظافتها ويتلوث هواؤها النقي وماؤها الزُّلَال وتبور أرضها الخصبة بسبب سلوكيَّاتنا السلبية والخاطئة، وينعكس ذلك علينا في النهاية بانتشار الأوبئة والأمراض.

في قصة (سعيد.. سعيداً)[٤٠] لوليد طاهر يُعدِّد سعيد أسباب عدم سعادته؛ إنه يحب الأشجار لكنه لا يرى إلا شجرةً مريضةً بجوار البيوت، يحب أن يشمَّ الورد لكنه لا يشم إلا رائحة الدُّخَان، يحب سماع أغاني العصافير لكنه لا يسمع إلا أبواق السيارات، يحب الماء النظيف لكنه يخاف أن يكون ملوثاً، يحب الشمس لكنها مختفية خلف العمارات التي تحجبها.

فقد سعيد سعادته لأن شجرته مرضت بسبب عدم النظافة والتلوث الذي جعل بيئته مريضة، وهو يعي هذه المشكلة وسيحاربها فيشتري البرتقال الذي يحبه من البائع النظيف الذي يهتم بنظافة مكانه ولا يشتريه من البائع الذي لا يهتم بالنظافة، ولأنه جنى ثمار التلوث من حوله وفقد الأشياء التي يحبها يسأل أباه وأمه كيف يواجه مشاكل البيئة، «قال بابا: لنفكر معاً ماذا نفعل في مشاكل البيئة!.. قالت ماما: تعالوا نتعاون معاً، فمشكلة تلوث البيئة مشكلتنا جميعاً»[٤١].

والقيمة الأساسية والمهمة في النص بخلاف تبيان الآثار المترتبة على التلوث بأنواعه، أن مشاكل البيئة تخصنا جميعاً، وتنتج عن سلوكياتنا السلبية التي يجب أن نواجهها معاً، فالأرض أُمُّنا جميعاً ويجب على كل منَّا أن يقوم بواجبه تجاهها.. التعاون فيما بيننا هو السبيل لمواجهة مشاكل البيئة، والعلاج كما جاء على لسان الأم في القصة (أم سعيد – أو أمُّنا الأرض): «عندما نوفر.. عندما ننظف.. عندما نزرع الأشجار، تصبح بلدنا نظيفة، ونصبح سعداء سعداء»[٤٢].

فالتوفير والاقتصاد في الاستهلاك أحد أهم مُقوِّمات الاستدامة البيئية والتقليل من المُخلَّفات والنُّفايات، والنظافة والتشجير أحد أهم معطيات تحسين البيئة من حولنا.

الوعي بأهمية النظافة في الحفاظ على البيئة يشكل ملمحاً مُهمّاً في قصة (مدرسة نظيفة.. شارع نظيف)[٤٣] لإيمان سند، فيحرص خالد ونورا وسارة في يوم النشاط على تنظيف الشارع والمدرسة، «سألتهم المعلمة: ماذا ستفعلون اليوم؟، قال خالد: سننظف شارعنا، وقالت سارة: سنبدأ بالمدرسة» [٤٤].

إن سلوكنا الإيجابيّ ينعكس على الآخرين ويشجعهم أن يحذوا طريقنا وطريقتنا، وتصرف الأصدقاء الثلاثة شجع زملاءَهم أن ينهجوا نفس السلوك الإيجابيّ تجاه البيئة من حولهم، فحرص تلاميذ المدرسة على وجود سِلَال القُمامَة في كل مكان بالمدرسة لتظل نظيفة طوال الوقت، كما حرصت الكاتبة أن تكون النظافة نهجَ حياةٍ في وعي أطفالنا؛ إن النظافة سلوك نكتسبه من البيت ويلازمنا طوال الوقت وفي كل مكان، فيحرص وليد أن يسأل: «وهل نفعل ذلك في البيت أيضاً؟.. أجابت نورا: نعم.. وعلينا أن نغطي سلَّة القمامة حتى لا تنتشر الأمراض»[٤٥].. فمن المهم للطفل أن يعرف أن عليه دوراً في نظافة ما حوله، وأن يعي الأخطار التي تتولَّد عن عدم النظافة ويتفاداها.

التلوث:

البيئي من أخطر المشكلات التي تواجه كوكب الأرض وتهدد حياة الكائنات فوقه، وهناك عدة أنواع للتلوث البيئي، منها تلوث الهواء، تلوث المياه والأنهار والبحار، والتلوث السمعي (الضوضائي)، والتلوث البصري، وتلوث التربة بدفن النفايات السامَّة والمُشعَّة فيها.

وكلها أشكال خطيرة على حياة الإنسان والكائنات الحية تسبب الأمراض وتعمل على نشرها، وأدت إلى ظواهر كتغيُّر المُناخ وغيرها من المشاكل التي تهدد كوكبنا.

وتحرص قصص الأطفال على شرح أشكال التلوث للطفل وتوعيته بأخطاره على حياتنا، والعمل على التقليل منه وتفادي الآثار السلبية الناتجة عنه.

في قصة (غسان يعرف ما هو التلوث)[٤٦] لنبيهة محيدلي تُعدِّد صور التلوث في البيئة حولنا، بعد أن يسمع غسان المذيع في التلفاز يتحدث عن التلوث وأخطاره على الإنسان والحيوان والنبات، ويسمع والده يتشكَّى من تلوث الهواء، ونراه عمليّاً حين تخرج أم غسان وابنها إلى

الشارع، «توقفت أم غسان جانباً، راحت تنظر إلى الدخان الأسود الذي يخرج من السيارة، وأشارت بيدها إليه وقالت: دخان السيارة يؤذي.. إنه يلوث الجو»[٤٧]. ونجد غسان وأمه يسعلان، فنعرف أنهما يسعلان بسبب التلوث.

وفي قصة (مدرسة نظيفة.. شارع نظيف)، تحرص الكاتبة على أن تقول الرسالة مباشرةً على لسان بطلة قصتها، «وفجأةً يتصاعد دخان كثيف، يجري الجميع نحو اتجاه الدخان، عم خليل يحرق القمامة بجوار سور المدرسة!!.. قالت سارة: يا عم خليل!.. هذا الدخان يلوث البيئة ويسبب الأمراض»[٤٨].

أما صبحي سليمان في قصة (المُخطَّط الشرِّير)[٤٩]، فأراد أن يُعرِّف الطفل عن التلوث وما يريده على لسان الدخان نفسه، «ـ لقد كُنت محبوساً وسط هذه الشجرة أعمل على نمائها وازدهارها، وهي تكبر كُل يوم وتُصبح أكثر اخضراراً، وأنا أدور وسط أوراقها وأغصانها؛ أعمل هُنا وهُناك... كُل هذا من أجل أن تُخرج ثماراً زاهية اللون يأكلها الإنسان والحيوان.. ولكن الآن قد واتتني الفُرصة أخيراً كي أنشر الدمار والخراب في كُل مكان.. ها ها ها. نظر ثاني أكسيد الكربون لعجوزٍ يمشي ببطءٍ على عُكاز خشبي، فصاح قائلاً: سأدخل داخل أنف هذا العجوز ومنه إلى رئتيه لأُصيبه بالأمراض.. فهذه هي وظيفتي الأساسيَّة والتي أعشقها.. فأنا الدمار نفسه»[٥٠].

فالدخان أو ثاني أكسيد الكربون أحد أهم وأخطر مُلوِّثات الهواء.

لكن أم غسان ترصد شكلاً آخر من أشكال التلوث فيما حولنا، «وفي الطريق مرَّ غسان وأمه بأرض ملأى بأكوام من النُّفايات، كانت الرائحة كريهة.... وعندما ابتعدا قالت أم غسان: النفايات تضرُّ بالجو وتلوث البيئة. انظر إلى الذباب كيف يحوم حولها»[٥١]، إنها نفس الرائحة التي شمَّها مروان حين انتقل من الريف إلى المدينة في رواية (حدائق من سحاب)، «وأكثر ما سوف يشعر به سكان الريف القادمون إلى المدينة تلك الرائحة الكريهة للدخان المتصاعد من عوادم السيارات»[٥٢]، لقد تعوَّد أهل المدينة رائحة العوادم التي أفسدت حاسَّةَ الشَّمِّ لديهم، أما الذين أتوا من الريف بهوائه النقي فلا تُطيق أنوفهم تلك الرائحة الكريهة.

وتواصل أم غسَّان رصد مظاهر التلوث، كالأوراق وأكياس النَّايلون على سطح البحر، كما ترصد قصة (إنهم يلوثون البيئة)[٥٣] لأحمد محمد دفنَ نُفايات المصانع وإلقاءَها في البحر فتموت الأسماك، حين يشاهد زعيم الفيلَة السفينة التي يقوم الرجال بإلقاء صناديقها في البحر، وبعدها ترى الزرافة الأسماك ميتة على شاطئ البحر فتذهب للأسد وتخبره بما جرى، وبمساعدة الحيتان

يعرفون أن الصناديق كانت بها نُفايات المصانع السامة والتي قتلت الأسماك، فيلقون القبض على المجرمين الذين لوثوا ماء البحر وقتلوا الأسماك.

وفي نهاية قصة (غسان يعرف ما هو التلوث) يرسم غسان لوحة جميلة بها بحر أزرق يلمع ماؤه صافياً، شوارع نظيفة تسير فيها السيارات بغير دخان، شمس ذهبية، وعصافير تزقزق.. لقد رسم غسان الطبيعة التي يحبها ويحب أن يراها ولم يرسم الواقع حوله.. هذه الصورة الجميلة التي نريد أن يراها أطفالنا في الواقع، وبدلاً من أن نقول مثل الأب والأم: «ما أجمل رسمك يا غسان!»[٥٤]. نقول: ما أجمل شارعك، ما أجمل حديقتك، ما أجمل بحرك، ما أجمل سماءَك.

التلوث السمعي (الضوضائي) لا يقلُّ خطورةً عن تلوث الهواء أو تلوث البحار؛ إنه يمنعنا من سماع غناء الطبيعة كما منع سعيد من سماع أغاني العصافير لأنه لا يسمع إلا أبواق السيارات في قصة (سعيد.. سعيداً)[٥٥]، وجعل والد مروان في (حدائق من سحاب) يبحث عن مكانٍ بعيدٍ عن الضوضاء ويحمي ابنته التي أصاب صدرَها المرضُ بسبب التلوث، «وجد والدي أن السكن في الطوابق الأخيرة سيوفر مكاناً منعزلاً عن الضوضاء التي تُصدرها أبواق السيارات، والأبخرة التي تتصاعد من عوادمها.... أما أختي فقد حاول والدي أن يوفر لها جهاز تنقية الهواء داخل غرفتها التي كانت نادراً ما تغادرها»[٥٦]. إن آثار التلوث خطيرة وتطول الجميع.. البشر والحيوان والنبات. إن الضوضاء والتلوث الذي نعيشه جعل البشر عصبيِّين، وهو ما لاحظه المعلم كاكولين في رواية (قصة القلب السمين) حين عرض صوراً لمدن وناطحات سحاب يجري الناس فيها بعصبيَّة، وغابة تنام فيها الأُسُود وإلى جوارها ترعى فيها الأبقار هادئة دون أن تخشى أن تلتهمها الأُسُود، المدينة العصرية التي تشوَّهت بكل مظاهر التلوث، بينما ظلت الغابة تعيش بكارَتها ونقاءَها، «لا.. إذا كانت الناس تجري بعصبية في كل مكان هذا معناه أن هناك شيئاً خطأ في العالم»[٥٧].. بالتأكيد هناك شيء خطأ إذا لم نتوقف عن تلويث بيئتنا وقتل أنفسنا.

القُمامة وإعادة التدوير:

يُعدُّ التخلص من القمامة بإعادة تدويرها أحد أساليب الاستدامة البيئية، ومن المهم توعية الطفل بالسلوك الصحيح في التعامل مع النُّفايات، وبطريقة التخلص من القمامة بشكل صحيح منذ الصِّغَر، وكثيرٌ من قصص الأطفال تلعب هذا الدور.

في قصة (مدرسة نظيفة.. شارع نظيف) لا يكتفي تلاميذ المدرسة بنظافة المكان الذي

يعيشون فيه، بل بفرز القمامة والتخلص منها في صناديق ملونة لتجمع الأصناف المتشابهة في صناديق واحدة، كمرحلة أوَّليَّة في مراحل تدوير القمامة.. «سألها التلاميذ: لماذا هذه الألوان؟

تجيب سارة: الصندوق الأحمر لفضلات الطعام، والأزرق للورق.. والأصفر للزجاج والبلاستيك والمواد الصُّلْبة.

سألت هدى: لماذا نقوم بفصل القمامة؟

فقالت سارة: إذا لم نفصلها نحن، فسيقوم بذلك أطفال صغار تتلوث أيديهم بالفضلات.

يسأل أحمد: وماذا بعد ذلك؟

تقول سارة: يفرزون كل شيء بمفرده ليُعاد استخدامه في مصانع الزجاج والورق والبلاستيك»[٥٨].

فالطفل هنا يبدأ الخطوة الأولى في عملية الاستدامة البيئية بتدوير القمامة، ويحذر الأطفال الأصغر عمراً من العبث بالقمامة حتى لا يلوثوا أيديَهم، وعندما يقرأ الطفل المتلقي القصة سيقلد أبطال قصته، وعلى الأسرة والمجتمع أن يساعداه في ذلك بتوفير صناديق القمامة الملونة في البيت والشارع؛ لترسخ بداخله هذه القيمة البيئية المهمة.

وفي قصة (أين تذهب القُمَامة)[٥٩] لفاطمة المعدول يتناول هند وشادي وجبة غذائية من أحد المحالِّ تم طلبها في المنزل، وحين عادت الأُمُّ من العمل وجدت أعداداً هائلة من الأكياس التي تحتوي على الطعام، ثارت الأم وقالت: إنكم بذلك تلوثون البيئة فهناك أشياء من هذه المخلفات يمكن إعادة تصنيعها مرة أخرى، وهناك أشياء مثل الأكياس والبلاستكيات كالشّوَك والملاعق لا يمكن تصنيعها مرة أخرى فيتم حرقها، وبذلك يتم تلوُّث المواد من حولنا أو إلقاؤها في البحر فتُلوِّث البحر.

وأعطت الأم نصائحها لأولادها في كيفية المحافظة على نظافة البيئة، وتشجيع البائعين الذين يستخدمون أغلفةً مُعادُ تصنيعها وليست من الأوراق المُفضَّضة الزاهية.

تقدم القصة قيمة إضافية بالحد من استخدام المواد التي لا يُعاد تدويرها، يقلل بها الطفل استخدام النفايات عدُوَّة البيئة برفض شراء المنتجات المُعبَّأة بمواد غير ملائمة بيئيّاً، وأكثر وعياً لتقليل استخدامه من المواد غير العضوية وغير القابلة للتحلُّل.

التوازن البيئي:

تحثُّ قصص الأطفال الطفلَ أن يتعامل مع الموارد الطبيعيَّة بشكل متوازن، من غير إفراط في استغلال البيئة من حوله بصورة تخلُّ بالتوازن البيئي، تضرُّ بالبيئة وتجدُّدها وفق النظام

الطبيعي. نجد مثلاً على ذلك في قصة (دموع البحيرة)[٦٠] لعفت بركات، حيث يحاول الصيادون صيد أسماك البحيرة الصغيرة قبل أن تكبر وتنمو، فتنهاهم البحيرة وتطالبهم أن يصبروا على الأسماك لتكبر وتضع بيضها فتزيد الأسماك وتكفي الجميع، بدلاً من أن نخلَّ بتوازن البيئة الطبيعي، «زعقت البحيرة: اتركوا أسماكي.. إلى أين تذهبون بها؟.. ضحك الغرباء واستمروا في العمل.. طق.. طق طق.. طق.. البحيرة صرخت: اتركوا صغاري أرعاها حتى تكبر وتضع بيضها فتزيد الأسماك ويأكل الجميع»[٦١]. القيمة هنا واضحة بضرورة أن نترك الطبيعة تُجدِّد نفسها لتتحقق الاستدامة البيئيَّة، ولن يحدث ذلك إذا أخللنا بالتوازن البيئي واصطدنا الأسماك الصغيرة.

الكوارث الطبيعية:

وكما أن كثيراً من القصص تشجع الطفل على حب الطبيعة والتوافق معها، هناك نصوص تدعو الطفل إلى الحذَر والحَيْطَة من غضب الطبيعة وثورانها، والتعريف بالكوارث الطبيعيَّة وكيفية التعامل معها، فالطبيعة ليست في كل حالاتها هادئة وجميلة وأحد قوانينها أنها لا تستمر على حال، حالها كحال البشر، حين تغضب الطبيعة وتثور تهدد كائناتها الحية وتعرضهم للأخطار، وتحاول هذه القصص توعية الأطفال بأهمية ألَّا يتعرضوا للطبيعة في نوبات غضبها وأن يبحثوا عن مكان آمن يحتمون به، حتى تهدأ الطبيعة وتعود إلى سكونها دون أن تتسبب في إلحاق الأذى بهم.

ففي قصة (ثابت والريح العاتية)[٦٢] القصة الفائزة بجائزة ماري لويز الهوا لأدب الأطفال الأخلاقي عام ٢٠١٤، غضبت الريح، «تكسَّرت أغصان الأشجار واقتُلعت الأشجار من جذورها الضاربة في أعماق الأرض، وتناثرت أعشاش الطيور وتفرقت فراخها، ومَشَّطت أسراب العصافير السماء بحثاً عن اتجاه يؤدي بها إلى ملاذٍ آمنٍ يحميها من غضب العاصفة الهوجاء» [٦٣].

لكن ثابت لم يفعل كما فعلت العصافير ويبحث عن مكان آمن يحتمي به، ووافق على عرض الريح العاتية أن تختبئ في بطنه من الشمس في مقابل أن تحميه من براثنها وعَضِّها وهيجانها[٦٤]، لكن الطبيعة تعلمنا ألَّا نأمن لها في حالة غضبها وأن نحتمي في ملاذ آمن حتى تهدأ ثورتها وتعود إلى طبيعتها، فثابت الذي خرج من مخبئه واستسلم للريح وعقد اتفاقاً معها، حملته الريح وألقت به في الصحراء بعد أن أوقعت به بألاعيبها، ولن يفيد الندم بعد أن يكتشف

غدر الريح به، «فأمسك بيده حفنة من الرمال ثم نثرها في الهواء وقال: الويل لك أيتها الريح اللئيمة»[٦٥].

غضب الطبيعة والكوارث الطبيعية لها أشكال كثيرة، كالزلازل والبراكين والأعاصير والسيول وغيرها وتسبب الطبيعة في غضبها الكثير من الدمار على الأرض؛ لذا يجب توعية الأطفال بالكوارث الطبيعية وتفادي الأخطار الناتجة عنها، تقول قطرة الماء في قصة (رحلة لؤلؤة): «لكنني عندما أغضب أفعل أشياءَ لا أرضى عنها حينما أتذكَّرها، تجعلني أحزن بشدة عما سبَّبته من ألم للآخرين، فغضبي أحياناً يكون في صورة سيول تجرف ما أمامها أو فيضان يغرق البيوت والقرى الصغيرة الملتفة حول النهر، فالغضب يعمي عيوننا ويجعلنا نرتكب الحماقات» [٦٦].

طبقة الأوزون وتغيـُّر المناخ:

قضية تغيُّر المناخ وأثر ثقب طبقة الأوزون التي تحمي الغلاف الجوي لكوكب الأرض والذي حدث نتيجة تلوث البيئة، بدأت تشغل أيضاً كُتَّاب الأطفال وتتناول أعمالهم هذه القضية المهمة والتي تتضح آثارها يوماً بعد يوم، حيث قدمت چان ثورنهيل كتاباً بعنوان: (هذا كوكبي.. دليل الأطفال للاحترار العالمي)، يتناول الكتاب مشكلة التغيُّرات المُناخيَّة، كما يجيب عن بعض التساؤلات التي تدور في ذهن الأطفال حول ظاهرة التغير المناخي والاحتباس الحراري على كوكب الأرض، ويحذر من ارتفاع درجة الحرارة الذي يؤدِّي إلى ذوبان الثلج في القارة القطبية وزيادة مياه البحر ؛ مما يؤدي إلى غرق بعض الجُزُر والمدن الساحلية. وتقرب قصة (المخطط الشرير) لصبحي سليمان قضية التغير المناخي وآثار الثقب الذي أحدثه التلوث البيئي بطبقة الأوزون، فيقول ثاني أكسيد الكربون لأصدقائه عوادم السيارات والدخان الناتج عن حرق الأشجار: «– سندمر طبقة الأوزون، فحدثه آخر قائلاً: – وما الفائدة في ذلك؟، نظر ثاني أكسيد الكربون بخُبث لأصدقائه وهو يقول: بتدمير طبقة الأوزون سترتفع درجة حرارة الأرض... وهكذا سيموت الإنسان والحيوان؛ وسنحكم الكوكب كُلَّه... ولن يكون به أحد سوانا»[٦٧]. هذا المصير السيئ الذي ينتظر الكرة الأرضية وكائناتها وإن بدا متشائماً، إلا إنه المصير الذي اختاره الذين يلوثون البيئة غير واعين لآثار هذا التلوث على مصيرنا جميعاً فوق كوكب الأرض، ولن يكون الإنقاذ إلَّا على أيادي أطفالنا الذين حمَّلتهم القصة عبء إصلاح ما أفسدناه بسلوكنا الخاطئ تجاه البيئة، «لكن قبل أن يُنفذ ثاني أكسيد الكربون وأصدقاؤه مُخطَّطهم الشرير، نظر طفل

صغير إلى الأشجار المُحترقة والعربات المُكتظَّة التي يتصاعد منها الكثير والكثير من ثاني أكسيد الكربون؛ وأخرج من جيبه بذرة صغيرة لشجرة وزرعها في الأرض؛ ورواها بالماء وهو يقول: هيَّا أيَّتُها البذرة الصغيرة اكبري بسرعة كي تصيري شجرة كبيرة لتُخلصينا من ثاني أكسيد الكربون الذي يُحاربنا، وأمدينا بالأكسـچين النافع لنا. ونظر هذا الصغير لأصدقائه قائلاً: ماذا أنتم فاعلون يا أصدقائي.. هل ستتركون ثاني أكسيد الكربون يقتلنا، أم ستزرعون معي الأشجار لنتخلص منه؟!!»[٦٨]. لقد وَعَى الأطفال الأخطار التي تتهدَّدنا نتيجة التلوث وعرفوا العلاج الذي يستطيعون به القضاء على الغاز القاتل، ثاني أكسيد الكربون، ويتصدون لمخططه الشرير للأرض وكائناتها، إنه العودة إلى الطبيعة وزراعة الأشجار والحفاظ عليها؛ لتعطينا الأكسـچين والهواء النقي وتخلصنا من التلوث.

فهل يستجيب الأطفال للنداء والاستغاثة التي وجَّهتها القصة لإنقاذ الأرض؟!

ازرع شجرةً:

للشجرة أهمية كبيرة في حياتنا، والحكمة التي نستطيع أن نخرج بها من أغلب قصص الأطفال التي تتناول قضايا البيئة، ضرورةُ الاهتمام بالشجرة في حياتنا لنُحسِّن بيئتنا ونتفادى آثار سلوك الذين قاموا بتلويث هوائنا النقي، والمعادلة ستصبح: إذا أردتَ أن تحصل على هواء نقي وتتخلص من آثار تلوث الهواء ازرعْ شجرة.. هذه الرسالة نجدها في أغلب القصص التي تناولتها هذه الدراسة، كما في استغاثة طفل قصة المخطط الشرير، «هل ستتركون ثاني أكسيد الكربون يقتلنا، أم ستزرعون معي الأشجار لنتخلص منه؟!!»[٦٩]، وفي قصة (سعيد.. سعيداً)، «عندما نزرع الأشجار ... نصبح سعداء سعداء»[٧٠]، وفي قصة (مدرسة نظيفة.. شارع نظيف) يقوم تلاميذ المدرسة بزراعة الأشجار ليحاربوا التلوث ويحصلوا على الهواء النقي، «قال أحمد: ستعطي نباتات البذور التي زرعناها روائح جميلة، وقالت نورا: وستعطينا الأشجار الأكسـچين وتنقي الهواء»[٧١].

وفى رواية (مُغامرة زهرة مع الشجرة) ليعقوب الشاروني، يواجه أطفال مدرسة ابتدائية، بتضامنهم، واقع الكبار الذى لا يُبالى بالخُضْرة ولا بالجمال ولا بمصلحة الأطفال، ويُفرِّط فى الأشجار كأنَّها لا قيمة لها. لقد وقف الأطفال، تتزعَّمهم فتاة منهم، حول شجرة يحمونها بأجسادهم من القَطْع لأنهم كانوا يلعبون فى ظلِّها؛ مما اضطر الكبار إلى الاستماع إليهم،

والموافقة على احتجاجاتهم، والتوقُّف عن "ذبح" الشجرة. إنها رواية تجمع ما بين تأكيد حق الأطفال فى التعبير عن مصالحهم، وقُدرتهم على تغيير قرارات الكبار الخاطئة، وفى الوقت نفسه، يدور موضوع القصة حول المُحافظة على البيئة مُتمثِّلة فى الحرص على سلامة شجرة ارتبط بها الأطفال[٧٢].

وفي رواية (حدائق من سحاب) يزرع والد مروان أسطح العمارات والجدران لتدبَّ الحياة في المدن الأسمنتية الحديثة، «مشروعي الأخير يحمل عنوان: (حدائق في السحاب) تلك الحدائق التي قررت زراعتها على أسطح البنايات الشاهقة، ستتحول المدينة معها إلى جنة خضراء ، لن تظلَّ تلك المدينة الكئيبة الأسمنتية، ستدب الحياة الخضراء على أسطحها، وعلى جدرانها»[٧٣].

لكن في قصة (فري يزرع شجرة)[٧٤] لپوليت بورچوا، الشجرة لها حياة كحياتنا وتمرُّ بمراحل الحياة المختلفة وتصبح صديقة لمن يزرعها، إن علاقتنا بالشجرة تبدأ منذ أن نحصل عليها كشَتْلَة صغيرة (مرحلة طفولة الشجرة)، وتستمر مع حياتنا.. إن العلاقة مع الشجرة ليست علاقة عابرة تنشأ في لحظة وتنتهي في لحظة، إنها أشبه ما تكون بفرد من أفراد العائلة نتولاه بالرعاية حتى ينمو ويكبر ويشاركنا الحياة والحب أساس هذه العلاقة.. فتوزيع مالك الحزين لشتلات الأشجار في يوم الأرض يحمل أكثر من رسالة على الطفل أن يعيَها، أهمية الشجرة للحياة في كوكب الأرض، أن نغير وجهة نظرنا في النظر إلى الشجرة كما غيَّر فِري وجهة نظره حين كان يعتقد أنه سيأخذ شجرة كبيرة يتخذها بيتاً لألعابه؛ ولذلك كان من الطبيعي أن يفقد الشَّتلَة التي أعطاها له مالك الحزين ليزرعها في حديقة منزله، قبل أن يعود ويبحث عنها ويجدها، فيتضح المغزى الحقيقي للقصة، «حمل فري شُجَيْرته بعناية حتى وصل إلى حديقة المنزل، ثم زرعها باهتمام، وسقاها بالماء. وكل يوم كان فري يسقيها ويراقبها وهو يقول لنفسه: كل يوم تصبح شُجَيْرتي أطول قليلاً.. مثلي تماماً. نعم يا فري.. كل يوم تصبح الشجرة أطول، وأقوى.. مثلك تماماً.. ومثلنا جميعاً».

وأهم قيَم النص أن تكون لكل منَّا شجرته، فالشجرة قيمة أساسية في حياتنا وحياة أُمِّنا الأرض؛ لتنمو وتكبر وتنشأ بيننا علاقة حب متبادلة تدفعنا للارتباط بالشجرة، وتقاوم ما أفسدناه بتصرفاتنا السلبية تجاه البيئة.

إنها نفس القيمة التي يحدثنا عنها مروان بطل (حدائق من سحاب)، «لم أترك كل شيء في الريف، فقد جلبتُ معي نبتتي التي زرعتُها في الصف الأول، إنه تقليد مُتَّبع في كل عام، حيث

يزرع الطلاب نبتتهم الأولى ويستمرون في العناية بها حتى تكبر ؛ لتنشأ بيننا علاقة حب متبادلة، تدفعنا للارتباط بالأرض»[٧٥].

المراجع:

١. أنطوان دو سانت إكزوبيري – الأمير الصغير – ص ١٥ – طبعة دار المعارف بمصر – ترجمة حمادة إبراهيم.

٢. يُراجع: البيئة موضوع كبير – عبد التواب يوسف – مجلة خطوة – المجلس العربي للطفولة والتنمية– العدد ١٨ لسنة ٢٠٠٢ – ص ١٢.

٣. ليام هينيجان – Beasts at Bed time – مطبعة جامعة شيكاجو – ط ٢٠١٨.

٤. د. ليلى كرم الدين – تعديل اتجاهات وممارسات الطفل والأسرة نحو البيئة وقضايا البيئة – مجلة خطوة – المجلس العربي للطفولة والتنمية – العدد ١٨ لسنة ٢٠٠٢– ص ١٨.

٥. د. إيمان عباس الخفاف – التعليم البيئي في رياض الأطفال – دار المناهج للنشر والتوزيع – الأردن– ط ٢٠١٣ – ص ٢٦.

٦. د. إيمان عباس الخفاف – التعليم البيئي في رياض الأطفال – دار المناهج للنشر والتوزيع – الأردن– ط ٢٠١٣ – ص ٢٣.

٧. د. ليلى كرم الدين – تعديل اتجاهات وممارسات الطفل والأسرة نحو البيئة وقضايا البيئة – مجلة خطوة – المجلس العربي للطفولة والتنمية – العدد ١٨ لسنة ٢٠٠٢ – ص ١٨.

٨. الإنسان والبيئة عبر العصور – إيان ج. سيمونز – ت. السيد محمد عثمان – سلسلة عالم المعرفة– العدد ٢٢٢ – الكويت.. يُراجع تفصيلاً ص ١٦ وما بعدها.

٩. يُراجع تفصيلاً الاهتمام بالبيئة في مواثيق الطفل الدولية – د. إيمان عباس الخفاف – التعليم البيئي في رياض الأطفال – المصدر السابق – ص ٢٩٠ – ٢٩٨.

١٠. قراءات الأطفال – حسن شحاتة – الدار المصرية اللبنانية – ط ١٩٩٢– ص ٥٥.

١١. يعقوب الشاروني – تنمية عادة القراءة عند الأطفال – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٩٨٤ – ص٢٩، ٣٠.

١٢. سوزانا تامارو – قصة القلب السمين – ترجمة: أماني فوزي حبشي – المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة – القاهرة – ط ٢٠٠٤.

١٣. سوزانا تامارو – قصة القلب السمين – المصدر السابق – ص ٦٠ – ٦١.

١٤. نادر أبوتامر – ليلى الخضراء – دار الهدى للطباعة والنشر – ط ٢٠٠١.

١٥. يُراجع: عبدالتواب يوسف – موسوعة علم البيئة للأطفال والناشئة – دار الكتاب اللبناني – ط ١٩٩٩.

١٦. يُراجع: فتحي صالح – بيئة نظيفة لصحة أفضل – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة

الأسـرة – ط ٢٠٠٧، وتتضمـن عـدداً مـن الكتـب تناقـش قضايـا بيئيـة كالتصحـر، تلـوث الهـواء، إعـادة تدويـر المُخلَّفـات والنظافـة الشـخصية وغيرهـا.
١٧. نبيهة محيدلي – ألف.. باء الحيوانات – دار الحدائق – بيروت – ط ثانية ٢٠١١.
١٨. أماني العشماوي – هل أنت سمكة – دار الحدائق – بيروت – ط ٢٠١٠.
١٩. أماني العشماوي – هل أنت سمكة – المصدر السابق.
٢٠. نبيهة محيدلي – غسان يعرف ما هو أحلى مكان – دار الحدائق – بيروت – ط ٢٠٠٢.
٢١. فريال خلف – السنبلة الخضراء – دار المنهل – مشروع المنهل التعليمي.
٢٢. أحمـد طوسـون – الفراشـة وزهـرة النرجـس – كتـاب اللغـة العربيـة للصـف الرابـع الابتدائـي بقطـر – للعـام ٢٠١٨/ ٢٠١٩.
٢٣. أحمد طوسون – الفراشة وزهرة النرجس – المصدر السابق.
٢٤. أحمد طوسون – الفراشة وزهرة النرجس – المصدر السابق.
٢٥. د. عمـر صوفـي – كلنـا طيـور – كتـاب قطـر النـدى – الهيئـة العامـة لقصـور الثقافـة – ط ٢٠١٤ – قصـة الدنيـا ليسـت قطـة – ص ١٠.
٢٦. د. عمر صوفي – كلنا طيور – المصدر السابق – ص ١١.
٢٧. د. عمر صوفي – كلنا طيور – المصدر السابق – ص ١١.
٢٨. منـال الغدانـي الشـحي – حدائـق فـي السـحاب – مطبوعـات جائـزة خليفـة التربويـة – العمـل الفائـز بالجائـزة – الـدورة الثامنـة ٢٠١٤/ ٢٠١٥.
٢٩. أحمـد طوسـون – أبـي صائـد الأقمـار – كتـاب قطـر النـدى – الهيئـة العامـة لقصـور الثقافـة – ط ٢٠١٨– قصـة رحلـة لؤلـؤة – ص ٣.
٣٠. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٤.
٣١. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٧.
٣٢. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٧.
٣٣. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٤.
٣٤. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – مكتبة الدار العربية للكتاب – ط ٢٠٠٨.
٣٥. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – ص ١٩ و ٢٠.
٣٦. يعقوب الشاروني – الرحلة العجيبة لعروس النيل – سلسلة المكتبة الخضراء – دار المعارف – ط٢٠٠٤.
٣٧. يعقوب الشاروني – الرحلة العجيبة لعروس النيل – المصدر السابق – ص ٢٣.
٣٨. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٥.
٣٩. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٨ A٩%DA%A٥%D٩%AV%AF%DA%AA%DA%DA%B٣%DA%AV%
٤٠. وليد طاهر – سعيد.. سعيداً – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة – ط ٢٠٠٨.
٤١. وليد طاهر – سعيد.. سعيداً – المصدر السابق.

٤٢. وليد طاهر – سعيد.. سعيداً – المصدر السابق.
٤٣. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – مكتبة الدار العربية للكتاب – ط ٢٠٠٨.
٤٤. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – المصدر السابق – ص ٣.
٤٥. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – المصدر السابق – ص ٨.
٤٦. نبيهة محيدلي – غسان يعرف ما هو التلوث – دار الحدائق – بيروت – ط ثانية ٢٠٠١.
٤٧. نبيهة محيدلي – غسان يعرف ما هو التلوث – المصدر السابق.
٤٨. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – المصدر السابق – ص ٢١ و ٢٢.
٤٩. صبحي سليمان – المخطط الشرير – مدونة حي بن يقظان – نُشرت إلكترونيّاً في ١٢ مايو ٢٠١٣.
٥٠. صبحي سليمان – المخطط الشرير – المصدر السابق؟
٥١. نبيهة محيدلي – غسان يعرف ما هو التلوث – المصدر السابق.
٥٢. منال الغداني الشحي – حدائق في السحاب – المصدر السابق – ص ١٣.
٥٣. أحمد محمد – إنهم يلوثون البيئة – دار المنهل – مشروع المنهل التعليمي.
٥٤. نبيهة محيدلي – غسان يعرف ما هو التلوث – المصدر السابق.
٥٥. وليد طاهر – سعيد.. سعيداً – المصدر السابق.
٥٦. منال الغداني الشحي – حدائق في السحاب – المصدر السابق – ص ١٣.
٥٧. سوزانا تامارو – قصة القلب السمين – المصدر السابق ص ٨٥.
٥٨. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – المصدر السابق – ص ١٠ إلى ١٢.
٥٩. فاطمة المعدول – أين تذهب القمامة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ٢٠٠٨.
٦٠. عفت بركات – المرجانة نانا – كتاب قطر الندى – هيئة قصور الثقافة – ط ٢٠٠٩ – قصة دموع البحيرة – ص ١٠.
٦١. عفت بركات – المرجانة نانا – المصدر السابق – ص ١٩.
٦٢. سهيل عساوي – ثابت والريح العاتية – فلسطين المحتلة – ط ٢٠١٤.
٦٣. ثابت والريح العاتية – المصدر السابق – ص٥.
٦٤. ثابت والريح العاتية – المصدر السابق – بتصرف عن ص١٠.
٦٥. ثابت والريح العاتية – المصدر السابق – ص٢٢.
٦٦. أحمد طوسون – أبي صائد الأقمار – المصدر السابق – ص ٧.
٦٧. صبحي سليمان – المخطط الشرير – المصدر السابق.
٦٨. صبحي سليمان – المخطط الشرير – المصدر السابق.
٦٩. صبحي سليمان – المخطط الشرير – المصدر السابق.
٧٠. وليد طاهر – سعيد.. سعيدا – المصدر السابق.
٧١. إيمان سند – مدرسة نظيفة.. شارع جميل – المصدر السابق – ص ١٦.

٧٢. مـن دراسـة بعنـوان: أدب الأطفـال والتنميـة البشـرية – يعقـوب الشـاروني – مُدوَّنـة حـي بـن يقظـان – نُشـرت إلكترونيّـاً بتاريـخ ١٥ فبرايـر ٢٠١٨.

٧٣. منال الغداني الشحي – حدائق في السحاب – المصدر السابق – ص ٤٢.

٧٤. پوليت بورچـوا – فري يزرع شجرة – دار نهضة مصر – ط ٢٠٠٥.

٧٥. منال الغداني الشحي – حدائق في السحاب – المصدر السابق – ص ١٦.